

# الباب الأول

التعريف بالقومية العربية

obeykandl.com

## ٦ — ماهية القومية ؟

لم تختلف الآراء حول مسألة قدر ما اختلفت حول تعريف ماهية القومية ، وعلاقة القومية بكل من الأمة والدولة . وعلايمنا أن نستعرض آراء بعض المفكرين ، حتى نستطيع أن نكون لنا رأيا خاصا .

من أبرز المفكرين الغربيين الذين تحدثوا في القومية والأمة والدولة : مكياثيللي ، وهوبز ، وروسو ، وفخته ، وهكل . فيرى هوبز أن أساس قيام الدولة أسران : أولها المصلحة الفردية ، وثانيهما الخوف من تضارب مصالح المجتمع الذي تتألف منه الدولة ، ويرى أن الدولة عليها أن تهتم بالتوفيق بين المصالح المتضاربة وتوفير الأمن للجميع ، وليتم ذلك لا بد من أن يجمع السلطة كلها في يد الحكومة .

أما روسو فقد رأى أن هذه الدولة التي يراها هوبز ينقصها الوحدة الخلقية ، ورأى روسو أن الطريق إلى هذه الوحدة الخلقية هو السعي وراء هدف مشترك على أن يؤدي هذا الهدف إلى خير جميع الأفراد . ويرى روسو أنه لتكوين مجتمع واحد لا بد من توفر شرطين : أولها وجود مصلحة مشتركة بحيث تستحق أن تقدم على المنافع الشخصية ، وثانيهما أن القانون الذي يخضع له المجتمع يكون من وضعه .

وخلاصة آراء روسو أن العلاقات بين الفرد والجماعة أساسها شيان :

المصلحة العامة والاشتراك في تقرير الأمور . وهذا هو الذي سماه روسو (الوطنية) وهذه الوطنية تشمل الجماعة السياسية ، بحيث تكون إيمانا عميقا تتأثر به حياة المواطن فتصبح عواطفه ومسئوليته الخلقية ومصالحته الشخصية وحتى محبته لنفسه مرتبطة بها ومعتمدة عليها . ويحتم روسو آراءه بقوله : ( ومن المؤكد أن أعجب ما ظهر من الفضائل كان نتيجة للوطنية أي لحب الوطن ) .

أما فحتمه فكان يرى أن الدولة يجب أن تتدخل في شئون الأفراد وأن تهتم بالمصالح العامة قبل كل شيء وخاصة في النواحي الاقتصادية . وكان يرى أن الدولة هي الخير الأمثل للأمة .

أما هكل فقد تأثر بأفكار روسو ، فنادى بأن الحرية الخلقية أساسها الخضوع لإرادة المجتمع . ولكنه عارض روسو في أنه اعتبر القوانين التي تخضع لها الأمة نتيجة لتاريخ المجتمع وتقاليد وعاداته ونظمه . وذهب هكل إلى أنه لا داعي لوجود هيئة تشريعية ذات سلطة عليا تضع القوانين على النحو الذي ارتآه روسو . والدولة عند هكل هي ما ينتج من الاختبارات التي تجتازها الأمة في أدوار حياتها ، فإذا عقدت بعض أنظمة الدولة مقدرتها على مجاراة الأمة في آمالها فقدت حقها في البقاء .

وخلاصة آراء هكل ، من حيث علاقته بالقوموية ، أننا عندما ندرس التاريخ فالذي يجب أن نتخذ وحده لبحثنا هو الأمة لا الأفراد أو المجموعات التي تتألف منها .

ومن أشهر النظريات التي تتناول القومية نظر يتان : النظرية الفرنسية ،

والنظرية الألمانية . أما الألمان ، فقد كانوا منذ أرائل القرن التاسع عشر ينادون أن أساس القومية هو اللغة . فكل المتكلمين بالألمانية ، هم ألمان ، مهما كانت الدولة أو الدولة التي ينتمون إليها . أما الفرنسيون فكانت ظروفهم تختلف تماما عن ظروف الألمان ، فقد أتمت فرنسا وحدتها السياسية منذ قرون كثيرة ، وكانت قد استولت على بعض البلاد التي لا يتكلم أهلها باللغة الفرنسية ، وكانت تطمح في الاستيلاء على بعض مقاطعات الراين التي تتحدث بالألمانية ، ولذا فإن موافقتهم على النظرية الألمانية تعارض مع مصالحهم ، ولذا نادوا بنظرية ( الإرادة والمشيئة ) ، فقالوا : إن القومية ليست باللغة ، بل إنما هي بالإرادة والمشيئة ، والأمة ليست مجموع الأفراد الذين يتكلمون لغة واحدة ، بل هي مجموع الأفراد الذين يحملون ( مشيئة المعيشة المشتركة ) . ومن أبرز الذين حملوا لواء هذه النظرية ( أرنست رينان ) ، ويبدو أن الشهيد عبد الوهاب الإنجليزي قد تأثر بهذه النظرية ، فقد كان يقول : كل من شاء أن يكون عربيا فهو عربي .

إن فكرة ( القومية ) قديمة ، عرفها البشر منذ أن عرفوا الحياة الاجتماعية وإن كانوا يطلقون عليها اسم ( العصبية ) . والحقيقة أن العصبية التي تجمع أفراد كل قبيلة ساهى إلا القومية . ونلاحظ أن أدب الجماعات القديمة التي كانت تعيش على شكل قبائل وعشائر هو أدب قومي عصبى قبلى . والأدب اليونانى القديم والأدب العربى الجاهلى من خير الأمثلة . فقد حفلت الإلياذة بذكر

العواطف القومية القبلية ، كما أن الأدب الجاهلي يكاد يقتصر على ذكر مفاخر القبيلة وأمجادها .

عرفت القبائل في نهاية المطاف نوعاً من الاستقرار ، فتركّت القبيلة حياة التنقل والترحال وسكنت بقعة من الأرض وارتبطت مصالحها بها ، وبدأ حبّ المدينة أو القرية أو مجموعة المدن التي أقامت فيها القبيلة . وهذا ما يمكننا أن نسميه الوطنية أو الشعور بحب الوطن . وهكذا ارتبطت القومية بالمكان ، ولكنها اقتصرّت على بقعة محدودة بادي الأمر هي المدينة . فالمدينة اليونانية ، مثل اسبارطة ، لم تتجاوز منطقة سيادتها إلاّ بضع مئات من الأميال المربعة ، وفي المشرق العربي القديم حلّت عصبية المدينة مكان عصبية القبيلة ، فتمصبت البصرة على الكوفة ، وتعصبت الكوفة على دمشق . وفي أوروبا في العصور الوسطى ( ١٢٠٠ - ١٥٠٠ م ) كانت المدينة وحدة اقتصادية وسياسية مستقلة .

إن الوطنية هي حب الوطن ، والقومية هي حب الأمة . وأما كان الوطن هو قطعة من الأرض ، والأمة هي جماعة من البشر ، فإن الوطنية هي ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف باسم الوطن ، والقومية هي ارتباط الفرد بجماعة من البشر تعرف باسم الأمة . وحب الوطن يتضمن بطبيعته حب المواطنين الذين ينتمون إلى ذلك الوطن ، كما أن حب الأمة يتضمن في الوقت نفسه حب الأرض التي تعيش عليها تلك الأمة .

لا تزال كلمة ( أمة ) غامضة في كثير من وجوه معناها ، فليس من اليسير

تحديدها ، وقد بذل اللغويون جهودا في سبيل توضيح معنى هذا اللفظ ، فذكر معجم (لاروس) الفرنسي أن الأمة « مجموعة من الناس ، تسكن أرضا واحدة ، وترجع إلى أصل واحد ، أو لها مصالح واحدة مشتركة منذ أمد بعيد ، وأخلاقهم متشابهة ، ويتحدثون في الغالب لغة واحدة » . أما معجم القرن العشرين البريطاني فقال : « الأمة جسم شعب نشأ في جذع واحد ، ويطلق اللفظ أيضا على الشعوب التي تسكن في بقعة واحدة ، وتخضع لحكومة واحدة » .

اختلف المفكرون في تحديد كلمة ( الأمة ) باختلاف ظروفهم وأحوالهم . فليس من الطبيعي أن يعتبر الأمريكي (العنصر) أصلا في تكوين الأمة ، لأن أمته خليط من كل العناصر ، وليس من الطبيعي أن يجعل الإنجليزي (الوطن) في المقام الأول من مفهوم الأمة ، لأن وطنه أوسع من حدود الجزر البريطانية .

تأثر (سيس) أحد زعماء الحركة القومية في فرنسا بتبادي الثورة والحكم النيابي ، فقال : « إن الأمة تتألف من قوانين مشتركة » . وعرف رينان الأمة بقوله : « لا تتكون الأمة بوحدة اللغة أو وحدة الأصل والعنصر ، بل يكون الأمة أحداث عظيمة حدثت في الماضي ، وتطلع إلى المجد في المستقبل » . ويعرف دركهم الأمة بأنها : « جماعة من البشر تريد الحياة في ظل قوانين معينة ، وأن تكون دولة سواء دولة كبيرة أم صغيرة » . أما شبنغلر فيقول : « ليست الأمم وحدات لغوية ولا سياسية ولا بيولوجية بل وحدات روحية » .

أما في المعاجم العربية ، فتجد أن مفهوم كلمة ( أمة ) تقترب من تعريفات رينان وشبنغلر .

إن مدلول الأمة كما نفهمه اليوم لم يكن محددًا عند أجدادنا العرب القدامى ففي معاجم اللغة العربية ( الأمة ) هي الجماعة من الناس ، والجيل ، والقرن ، وأهل الزمان الواحد ، وغير ذلك . وهذه التفسير كلها لا تنطبق على ما عرفه عن الأمة في الوقت الحاضر ، عدا التفسير الأول أي ( الجماعة من الناس ) ، ولكننا نضيف إليها أنها الجماعة من الناس التي لها لغة واحدة وأدب واحد ، وتقاليد واحدة ، ومصالح واحدة ، والتي لها مميزات خاصة تميزها عن غيرها .

إذا أردنا أن نلمّ تمامًا بماهية مفهومى ( الوطنية ) و ( القومية ) وجب أن نلاحظ علاقة كل منهما بمفهوم ثالث هو مفهوم ( الدولة ) . والدولة هيئة سياسية يعرفها علماء القانون والاجتماع بقولهم : ( جماعة من البشر ، يعيشون على أرض معينة مشتركة ، مؤلفين هيئة سياسية مستقلة ذات سيادة )

ان مفهوم ( الدولة ) هو الخط الواصل بين مفهومى ( الوطن ) و ( الأمة )

ولكن هذا الارتباط يختلف باختلاف أدوار التاريخ والظروف :

١ - فهناك أمة تؤلف دولة واحدة مستقلة ، مثل الأمة السويدية الآن ، فتنتطبق الوطنية على القومية ، ويكون الوطن (مجموع الأراضى التي تعيش عليها الأمة وتدير سياستها الدولة) .

ب - وقد تؤلف الأمة دولاً عديدة كل منها مستقلة تماماً ، مثل الأمة

الألمانية قبل اتحادها سنة ١٨٧٠ ، ولذا فإن القومية تتجاوز حدود هذه الدولة وتسمى لإنشاء دولة واحدة ، ولذا لا تنطبق القومية على الوطنية .

ح - وقد تكون الأمة محرومة من دولة خاصة بها وتابعة لدولة أجنبية عنها ، مثل الأمة البلغارية أثناء خضوعها للدولة العثمانية ، وهنا تفرض الدولة الحاكمة ( وطنية عامة واسعة النطاق ) ، ويقوم الصراع بين الوطنية التي تفرضها الدولة الحاكمة وبين القومية التي يشعر بها أفراد الأمة المحكومة .

د - وقد تكون الأمة محرومة من الاستقلال ، وتكون في الوقت نفسه مجزأة وموزعة بين عدة دول أجنبية عنها ، مثل الأمة البولندية قبيل الحرب العالمية الأولى . وهنا نرى كل دولة حاكمة تحاول فرض وطنيتها ، بينما تسعى القومية إلى توحيد هذه الأجزاء أولاً ثم تكوين دولة قومية جديدة ثانياً .

نستطيع أن نلخص الآراء كلها فنقول إن ( القومية ) هي مجموعة من الخصائص ، والمزايا ، والطباع ، والتقاليد ، والعادات ، والنظم الاجتماعية ، تنطبع بالجملة على مرّ الأجيال ، وبدرجات متفاوتة ، في نفوس قوم تجمعهم وحدة لغوية وأدبية وتاريخية ، وروابط مشتركة من ذكريات وآمال ومصالح ومؤثرات إقليمية متممة بعضها للبعض الآخر ، من دون أن تقوم فيهم جميعاً الوحدة العنصرية .

## ٢ — العرب والعالم العربي

### ١ — العالم العربي :

يمتد العالم العربي من الخليج العربي شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، ومن جبال طوروس في جنوب تركيا شمالا ، إلى المحيط الهندي ومنابع النيل والصحراء الكبرى جنوبا . وينقسم العالم العربي جغرافيا إلى قسمين ، قسم في غرب آسيا ، وقسم آخر في شمال إفريقيا . يضم القسم الأول جزيرة العرب ( نجد ، والحجاز ، واليمن ، وعدن ، وحضرموت ، وعمان ومسقط وساحل الصالح وقطر والبحرين والكويت ) والعراق والشام ( سورية ولبنان وفلسطين والأردن ) . أما القسم الثاني فيشتمل على : مصر ، والسودان ، وليبيا ( طرابلس وبرقة ) ، وتونس والجزائر ، ومراكش . وهناك بلاد بعض سكانها عرب أو يتكلمون باللغة العربية مثل زنجبار وبلاد الصومال وأواسط إفريقيا وغيرها . وفي الأمريكيتين عدد كبير من المهاجرين العرب .

يقدر تعداد العرب بنحو تسعة وسبعين مليونا ، ثلثهم تقريباً في القسم الآسيوي ، وثلثاهم في القسم الإفريقي . ويقدر عدد الأجانب الذين يعيشون في البلاد العربية بنحو أربعة ملايين نسمة ( وخاصة في فلسطين والجزائر ) ، يقابلهم العدد نفسه من العرب ومن المتكلمين بالعربية الذين يعيشون خارج

البلاد العربية . وعلى هذا يكون مجموع العرب والتمسكانيين بالعربية قرابة ثلاثة  
وثمانين مليون نسمة .

وأكثر الأقطار العربية سكانا الإقليم المصري من الجمهورية العربية  
المتحدة ، فيه ثلاثة وعشرون مليونا ، يليه مراکش فسكانها تسعة ملايين في  
الجزء الذي كان خاضعا للحماية الفرنسية ، ومليون ومائتا ألف في الجزء الذي  
كان خاضعا للحماية الأسبانية . ويبلغ سكان الجزائر كافة تسعة ملايين وثلاث  
مليون ( منهم مليون ومائتا ألف فرنسي ) ، ويكاد السودانيون يبلغون تسعة  
ملايين ، والتونسيون أربعة ملايين ، والمليبيون مليون ونصف . والراجح أن  
سكان المملكة العربية السعودية ( نجد والحجاز وعسير ) قد أصبحوا سبعة  
ملايين ، وسكان اليمن أربعة ملايين ونصف مليون ، وسكان عدن  
وحضرموت نحو تسعة آلاف ، وسكان عمان ومسقط نصف مليون تقريبا ،  
وسكان ساحل الصلح ثمانين ألفا ، وسكان قطر عشرين ألفا . وفي البحرين  
مائة ألف نسمة ، وفي الكويت مائتان وخمسون ألف نسمة . وسكان العراق  
نحو ستة ملايين ، وسكان الشام نحو سبعة ملايين عربي ( منهم ثلاثة ملايين  
وثمانمائة ألف في الإقليم السوري من الجمهورية العربية المتحدة ، ونحو مليون  
وأربع مائة ألف في لبنان ، ومثل هذا العدد في الأردن ، وثلاثمائة ألف في قطاع  
غزة ، ومائة وتسعون ألفا في الجزء المحتل من فلسطين ، ومائتان وعشرون ألفا  
من اللاجئين الفلسطينيين خارج فلسطين ومملكة الأردن ) . ويقدر عدد

الصهيونيين في الجزء المحتل من فلسطين بنحو مليون ونصف مليون نسمة .  
إذا ألقينا نظرة على خريطة العالم العربي نجد أنها تحتوي على شتى أنواع  
التضاريس والمناخ والنبات والمعادن ، ويكاد أجزاء العالم العربي يتم  
بعضه بعضا .

لم تعد العوامل الطبيعية ، وحدها ، تعين حدود الدول ، وتتحكم في مصائر  
الشعوب ، بعد أن تقدمت وسائل المواصلات في عصرنا الحديث فربطت  
الأقطار المتباعدة ، وتغلبت على الجبال والبحار والصحارى ، وأتاحت للدول  
الكبيرة أن تتوحد رغم ما بين أجزائها من اختلاف في طبيعة الأرض والمناخ  
والموارد الاقتصادية ، وقضت على جميع الموانع الطبيعية . فالدول الحديثة إنما  
تقوم على إرادة شعوبها في المعيشة المشتركة ، المستندة إلى المصالح المادية  
للتبادلة ، والعقليات المتقاربة ، والآمال والأهداف الواحدة ، وليس على أسس  
جغرافية محضة .

رغم أننا نعيش في القرن العشرين ، ذلك القرن الذي شهد سيطرة  
الإنسان على العوامل الطبيعية والجغرافية إلا أن أجزاء العالم العربي ما زالت  
محرومة من وسائل المواصلات الحديثة التي تيسر لها الاتصال السريع ، المريح ،  
الرخيص بأجزائه الأخرى . ولا شك أن صعوبة الاتصال تؤدي إلى ظهور  
النزعات الإقليمية في بعض الأقطار العربية النائية ، فيطبع كل قطر بطابع  
خاص فيصبح له عاداته وتقاليده ولهجته وقوانينه وظروفه الاجتماعية الخاصة

به ، وهذه الصعوبات أدت إلى منع امتزاج بعض الشعوب وانصهارها في بوتقة واحدة ، وأدت أيضاً إلى ظهور أقليات قومية ودينية واجتماعية .  
تتصل أقطار العالم العربي اتصالاً مباشراً مستمراً دون أن تخل بانسجامها الأثنولوجي دولة غريبة سوى إسرائيل التي أصبحت مثل ( العظمة في الزور ) ، ومصيرها الزوال إن شاء الله ، حتى يتم الاتصال والانسجام بين جميع أجزاء العالم العربي .

### ب — العرب :

كانت شبه جزيرة العرب هي مهد العرب ، بل مهد الساميين جميعاً . ويرى كثير من المؤرخين الأوروبيين أن العرب والساميين شيء واحد . فقال Sprenger سبرنجر إن جميع الساميين عرب . فقد كان شبه الجزيرة العربية مأهولاً بأقوام من جنس البحر الأبيض المتوسط الذي يتصف أبناؤه بالبشرة السمراء ، والرؤوس المستطيلة ، والتعور المجعدة السوداء ، والقامة المتوسطة ، وكان منهم المستقرون في الأراضي الخصبة ، ومنهم البدو المتنقلون . ويطلق عليهم جميعاً اسم ( الساميين ) . وكان هؤلاء البدو إذا عجزت جزيرة العرب عن مدتهم بحاجاتهم الاقتصادية اندفعوا إلى بلاد الهلال الخصيب في الشمال ، على شكل هجرات واسعة ، فيستقرونها فيها ، ويمتزجون بسكانها الأصليين .

خرجت هذه الهجرات إلى الهلال الخصيب ( الشام والعراق ) لوفرة الماء

والكلاً والموارد الاقتصادية ، وقد بدأت هذه الهجرات في وقت مبكر جدا ،  
فإنها ما يرجع عهده إلى أربعمائة آلاف سنة قبل الميلاد ، مثل هجرة الأكديين  
إلى العراق ، حيث استقروا في جنوبي العراق ، وامتزجوا بالسومريين ،  
مكونين الحضارة السومرية الأكديّة ، ثم حلّ محلّهم العموريون الذين  
امتدوا إلى شمال سورية ، ثم الآشوريون الذين أسسوا في شمال العراق  
امبراطورية امتدت إلى ضفاف النيل ، ثم الفينيقيون الذين استقروا في السواحل  
الشرقية من البحر الأبيض المتوسط ( سنة ٢٦٠٠ ق . م ) ، والبرانيون الذين  
سكنوا في فلسطين فترة طويلة .

من هذه الهجرات : هجرة أبناء إسماعيل من مكة إلى الشام في القرن  
السادس قبل الميلاد ، وهجرة قبائل قضاة ( ومنهم تنوخ ) إلى الشام والعراق  
زمن الميلاد ، وهجرة إباد إلى سواد العراق فالموصل ، وتزوج قبائل ربيعة عن  
الحجاز إلى الجزيرة بين دجلة والفرات ، وهجرة القحطانيين من اليمن إلى الشام  
على أثر انهيار سدّ العرم في القرن الثالث للميلاد ، فنزلت نهم في العراق ،  
وغسان في الشام ، والأوس والخزرج في يثرب . وأتم موجة عربية عرفها تاريخ  
الجزيرة العربية موجة العرب المسلمين في القرن السابع للميلاد حينما خرجوا  
إلى الشام والعراق فاتحين لينشروا الإسلام ، وامتدت الفتوحات إلى الصين  
شرقا وإلى المحيط الأطلسي غربا . وما برحت الجزيرة العربية تقذف بقبائلها  
إلى الشمال من حين إلى آخر ، تارة على شكل موجات عنيفة مكتسجة ،  
وطورا على شكل هجرات بطيئة مسالمة ، وآخر ما عرفناه من هذه الهجرات

نزوح قبيلتي شمر وعزرة من نجد إلى الشام في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاد .

وهذا يوضح لنا أن جيوش المسلمين العربية عند ما سارت لفتح الشام والعراق ومصر ، وجدوا معظم سكانها إما عربا وإما أقواما من أصول سامية أي عربية قديمة . ولهذا سهل بعد الفتح تفاهم الفاتحين والسكان الأصليين ، كما سهل اختلاطهم وتمازجهم واندماجهم في قومية عربية واحدة .

أقبلت شعوب البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام ، يدفع بعضها للإعجاب بالدين الجديد ، ويدفع بعضها للتخلص من الجزية المفروضة على غير المسلمين أو التقرب من الفاتحين ، وتدفع بعضها الرغبة في الخلاص من الاختلافات الدينية المذهبية في الكنيسة المسيحية ، وما تبع هذه الاختلافات من اضطهاد فرقة لأخرى .

وكما أقبلت هذه الشعوب المغلوبة على الإسلام ، فقد أقبِلوا على اللغة العربية وتخلوا عن لغاتهم القديمة . وبدأت عملية تعريب واسعة النطاق ، واسترجت دماء هذه الشعوب بالدماء العربية عن طريق التزاوج ، والتخاطب بأخلاق العرب وسجاياهم ونظمهم الاجتماعية . ولسكن عملية التعريب لم تسر جنبا إلى جنب مع حركة إدخال الناس في الإسلام ، لأسباب أهمها أن استقرار العرب في البلاد المفتوحة لم يكن بأعداد متساوية . فقد استقروا في بعض الأقطار ، كالعراق والشام ، بأعداد كبيرة امتزجت بالسكان بالزواج ، فأثرت في تكوين

السكان الجنسي ، إذ طبقتهم بطابع الجنس العربي . يضاف إلى هذا أن عرب شبه الجزيرة العربية كانوا على اتصال مستمر بهذه البلاد قبل ظهور الإسلام ، وأن أغلبية سكانها الأصليين هم من الساميين ، كما ظلت هذه البلاد مركزاً للحكم العربي فترة بعيدة . واستقر العرب في مصر وشمال إفريقيا بأعداد أقل ، ولذا كانت عملية التعريب أكثر بطأً وإن كانت قد أدت في النهاية إلى نفس النتيجة .

لم تحدث عملية التعريب إذاً فجأة ، بل استغرقت زمناً طويلاً ، فقد ظل أثر العنصر العربي ضعيفاً في برقة وطرابلس إلى القرن الحادي عشر ، حيث كان البربر يمثلون غالبية السكان . على أن هجرة قبائل بني سليم وبني هلال المضرية النجدية ، التي استقرت في مصر في أوائل الفتح العربي ، إلى برقة وطرابلس وتونس أدت إلى التعجيل بتعريب أعداد ضخمة من البربر ، فعززت القومية العربية . ومما قوى عملية التعريب في شمال إفريقيا ، وخاصة مراکش ، نزوح جماعات وافرة العدد من العرب من أسبانيا بعد سقوط الحكم العربي وسقوط الأندلس في يد الأسبان .

أخذ العرب يتسربون إلى السودان بعد فتح مصر مباشرة . ولكن هجرة القبائل العربية الجماعية ترجع إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد . ومن امتزاج العرب بالحاميين الساكنين في الأقسام الشمالية والشرقية من السودان ، والبربر الحاميين النازحين من إفريقيا الشمالية ، والنزوح الإفريقيين

تولدت الشعب العربي المسلم الذي يؤلف أغلبية السكان في الأقسام الشمالية والوسطى من السودان . وقد كملت عملية تعريب السودانين ، وإدخالهم في الإسلام ، حوالى نهاية القرن السادس عشر الميلادى ، بزوال آخر بقايا دولة النوبة المسيحية .

ثم بدأ طور جديد ، فقد بدأ امتزاج دماء أخرى بالدماء العربية ، فقد تدفقت على العالم العربى شعوب مختلفة ، منها من أتت مسالمة مثل الفرس والهنود والأتراك والأكراد والأرمن والزنوج ، الذين قدموا عمالا ، وصناعا ، وجنوداً مرتزقين ، وجوارى ، ورقيقا ، ومنها من أتته فاتحة غازية ، مثل البويهيين الفرس ، والسلاجقة الأتراك ، والمغول ، وأخيراً الأتراك العثمانيين الذين حكموا العالم العربى أربعة قرون . خلفت هذه الشعوب نسلا يمتون بدمائهم إلى سلالات غير ساهية ، ولكن هذا النسل ما برح يمثل أقلية ، ولبث الدم العربى السامى سائداً البلاد العربية ، لفرط حيويته وشدة تأصله ، ولكونه يدغم دائماً بموجات تأتيه من المنبع أى من جزيرة العرب . ولم يتمكن شعب من الشعوب التى ذكرناها أن يخلف وراءه طابعه الخاص فى البلاد العربية ، فلم يدم فيها غير الطابع العربى ، لأن كل الثقافات غير العربية كانت تمر فيها مرّة الكرام ، وسرعان ما كانت تتغلب الثقافة العربية عليها وتطوّبها فى طياتها . وعلى الرغم من أن سيادة الترك العثمانيين فى البلاد العربية كانت طويلة الأمد ، أكثر من كل سيادة أجنبية أخرى ، فإنهم لم يستطيعوا أن ينجحوا

في عملية التتريك . لقد استعمروا البلاد العربية سياسيا ، ولكن العرب في أثناء هذا الاستعمار قد استعمروهم أدبيا وثقافيا . وخير دليل على صلابة العرب واعتزازهم الدائم بقوميتهم العربية ما نشاهد في الجزائر في هذه الأيام ، فالجزائر تعاني الاستعمار من قرن وربع قرن ، وأراد الفرنسيون أن يقوموا بعملية (إذابة) أو (إفناء) الشعب الجزائري ، وبدلوا في سبيل ذلك كل الوسائل من سياسية إلى عسكرية إلى اقتصادية ، ورغم ذلك فقد قامت حكومة جزائرية مؤقتة ، ويناضل الشعب الجزائري ويبدل دماءه وخيصره في سبيل المحافظة على عروبتة وإنشاء دولة عربية .

وخلاصة هذه الحقائق ، أن معظم سكان البلاد العربية ينتمون إلى أصل واحد هو الأصل العربي (أى السامى) ، وأن اختلاط دمائهم بدماء غير عربية لم يكن له أثر كبير في نقاء الدم العربي ، بل إن اللماء العربية ظلت الراجحة الراسخة في جميع الأقطار العربية .

وقبل أن نختم حديثنا عن (العرب) ، نستعرض آراء بعض المستشرقين : قال Gibb<sup>(١)</sup> في كتابه (The Arabs) : « مهما قال علماء الأجناس ، فلا يوجد غير جواب واحد مستمد من التاريخ ، للإجابة عن التساؤل (من هم العرب؟) ، أما الإجابة فهي أن العرب هم كل من يعتبرون رسالة محمد وذكري الامبراطورية العربية ، الحقيقية المركزية في التاريخ ، بالإضافة إلى اعتزازهم

باللغة العربية وتراثهم الثقافي ، واعتبارها ملكهم المشترك » . ويذكر Bernard Lewis <sup>(١)</sup> أن جماعة من الزعماء العرب أرادوا منذ عدة سنوات أن يعرفوا ( العرب ) فقالوا : « كل من يعيش في بلادنا ، ويتكلم لغتنا ، وقد نشأ على ثقافتنا ، ويمتز بأجداننا ، فهو منا » . أما Fisher <sup>(٢)</sup> فيبحث في أجناس الشرق الأدنى ، ثم يقول : « والخلاصة أننا نستطيع القول ، من وجهة نظر علماء الأنثروبولوجيا ، أنه من المستحيل أن نتحدث عن ( شعب عربي ) أو ( شعب سامي ) ، فالتعبيران يعنيان مزيجاً من الناس ، يختلفون اختلافاً كبيراً في الخصائص الجسدية والأصول الجنسية ، وهما في أحسن استعمالتهما لا يعدوان كونهما تعبيراً لغوياً وثقافياً » . ويتحدث George Antonius <sup>(٣)</sup> عن أن عرب العصر الحاضر هم نتيجة امتزاج العرب الفاتحين بشعوب البلاد الأصلية وتعريبتهم هذه الشعوب . ثم يذكر أن العرب هم أغلبية المواطنين في العالم العربي ، الذين يتحدثون اللغة العربية ، ويتطبعون بالطابع العربي ، بغض النظر عن الدين الذي يدينون به .

تتبع برنارد لويس <sup>(٤)</sup> تطور مفهوم كلمة ( عرب ) في التاريخ ، فذكر أن هذه الكلمة كانت تستعمل قبل ظهور الإسلام وصفاً للبدو ، ثم توسع

Bernard Lewis : The Arabs in History, (London, 1951), p. 9. (١)

W. S. Fisher : The Middle East, (London, 1950) p. 77. (٢)

George Antonius : The Arab Awakening, (London, 1945), p. 13 (٣)

Bernard Lewis : The Arabs in History, p. 9-13. (٤)

الإغريق والرومان في استعمال هذا اللفظ فصار يطلق على عرب الجزيرة العربية الرحل والمستقرين حول الواحات . ثم أصبح لفظ ( عرب ) بعد الفتح العربي يطلق على العرب الفاتحين تمييزا لهم عن سكان البلاد المفتوحة . وبعد أن تحولت الدولة العربية إلى دولة إسلامية عالمية أصبحت الكلمة تعني ثقافة الإمبراطورية العربية المختلفة الأصول التي اقتبست عن أجناس وثقافات عديدة مختلفة . وبعد أن تم امتزاج العرب بالشعوب المغلوبة ، وبعد خضوع هؤلاء لعناصر حاكمية جديدة ، فقدت الكلمة تدريجيا محتواها القومي وأصبحت عبارة عن اصطلاح اجتماعي فقط يطلق على البدو الذين حافظوا أكثر من سواهم على نقاوة اللغة والتقاليد العربية ، وصار يطلق على الشعوب المستقرة الناطقة باللغة العربية اسم المسلمين أو ( أبناء العرب ) تمييزا لهم عن باقي المسلمين الذين لا يتكلمون اللغة العربية . ثم أصبح لفظ ( عرب ) معنى جديد في عصرنا الحاضر ، وتولد هذا المعنى تحت وطأة الغرب ، فهذا المعنى يعتبر الشعوب المتكلمة باللغة العربية ، شعبا واحدا ، بحسب المفهوم الأوروبي ، أو مجموعة من الشعوب الشقيقة ، يوحدتها اشتراكها في الوطن ، واللغة ، والثقافة ، والطموح إلى الاستقلال السياسي .

وبعد استعراض هذه الآراء نقول إن المقياس الحقيقي في تحديد من هو ( العربي ) هو وحدة الوطن ، واللغة ، والتاريخ ، والتقاليد والعادات ، والثقافة والنظم الاجتماعية . وأما العامل الديني الذي أشار إليه ( جب ) فيعتبره بعض

العرب ، وخاصة في البلاد التي لا يزال فيها أمر الدين قويا والوعي القومي ضعيفا ، أحد الروابط الأساسية الجامعة بين العرب . على أن تطور الوعي القومي العربي الذي ينمو في سرعة عظيمة يبعد العامل الديني ويبرز العوامل الأخرى .

إن كل من ينتسب إلى البلاد العربية ، ويتكلم اللغة العربية ، هو عربي . مهما كان اسم الدولة التي يتبعها ، ومهما كانت الديانة التي يدين بها والمذهب الذي ينتمي إليه ، ومهما كان أصله ونسبه . والعروبة ليست خاصة بأبناء الجزيرة العربية ، ولا مختصة بالمسلمين وحدهم . بل إنها تشمل كل من ينتسب إلى البلاد العربية ويتكلم باللغة العربية . سواء أكان مصريا ، أو لبنانيا ، أو جزائريا . وسواء أكان مسلما ، أو مسيحيا . وسواء أكان سنيا ، أو درزيا ، أو من الشيعة . وسواء أكان أرثوذكسيا ، أو كاثوليكيًا ، أو بروتستانتيا . فهو من أبناء العروبة ، مادام ينتسب إلى بلاد عربية ، ويتكلم باللغة العربية .

### ٣ - أسس القومية العربية

اختلف المفكرون كثيرا في تحديد أسس القومية العربية ، كما اختلفت النظرة باختلاف العصور والأزمان . اتفقت الآراء على أنه من الضروري أن يكون بين الأفراد الذين يؤلفون قومية واحدة شعور عام مشترك يمكنهم من العيش معا. ولكن ماهو هذا الشعور المشترك؟ وعمّ يستمد وجوده وقوته؟.

هل يستمدها من ( الوحدة الجغرافية ) ؟

فقد اعتبرت الوحدة الجغرافية في وقت ما أحد العوامل التي تكون القومية . والمقصود بالوحدة الجغرافية هو أن تكمن البلاد التي يسكنها أصحاب القومية الواحدة واضحة الحدود والمعالم ، متحدة متجانسة في صفاتها الجغرافية من حيث سطحها وبنائها . فتكون هذه الصفات المشتركة ، بجانب الحب الذي يشعر به سكان البلاد نحوها ، رابطا يربط الأفراد بالبلاد ويربطهم من ثمّ بعضهم ببعض. وغالى البعض في تأثير البيئة الطبيعية والأحوال الجغرافية في حياة الأمم وطبائعها، حتى أن البعض زعموا أن الأمة وليدة البيئة الجغرافية . وأحسن مثال لهذه الآراء المتطرفة ما ذكره ( مونتسكيو ) في كتابه ( روح القوانين ) ، فقد ادعى أن البيئة تؤثر في أخلاق الأمم وسجاياها تأثيرا كبيرا . وحاول أن يعلل قيام النظم الديمقراطية أو النظم الاستبدادية بالأحوال الطبيعية، وزعم أن انتشار الإسلام في بعض البلاد وعدم انتشاره في بلاد أخرى، وانتشار

البروتستانتية في بعض البلاد وبقاء السكائوليكية في بلاد أخرى ، أيضا يعود إلى تأثير البيئة الطبيعية . ولكن فات مونتسكيو أن البيئة الجغرافية تعطى إمكانات عديدة ، ولكنها لا تحتمّ أمرا من الأمور ، وأن مبالغ استفادة الشعوب من هذه الإمكانيات يختلف باختلاف أدوار التاريخ ومستوى الحضارة وخصائصها .

يتحدث بعض أعداء القومية العربية عن اختلاف الأقطار العربية في المناخ والأحوال الطبيعية والعوامل الجغرافية ، ويزعمون أن هذا الاختلاف يستلزم تعدد الدول ويحول دون اتحاد البلاد العربية . وفات هؤلاء المفرضين أن اختلاف الأحوال الطبيعية لا يضعف الدولة ، بل بعكس ذلك يكسبها قوة على قوة لأن البيئات الجغرافية المختلفة يتم بعضها بعضا ، وتجعل الدولة تستطيع أن تستكفي بمواردها ، دون أن تكون مفتقرة إلى مساعدة غيرها ، لغمان حاجاتها المختلفة .

إن فقدان عامل (الوحدة الجغرافية) لا يستطيع أن يفكك أمة فيجعل منها شعوبا ، كما أن وجوده وحده لا يخلق من شعب متفرق أمة . فاليونان في الوقت الحاضر يسكنون بلادا مختلفة السطح في أجزائها ، متباينة الملامح الطبيعية ، ومع ذلك فقد احتفظوا بالشعور بوحدتهم القومية . وهذه بولاندا ، وهي في مقدمة الشعوب العالمية تمسكا بقوميتها ، تسكن بلادا لا حدود واضحة لها ولا يفصلها عن جارتها الشرقية الروسية ، أو عن جارتها الغربية ألمانيا شيء ،

فالأقطار الثلاثة منمتصلة بعضها ببعض، لأنها أجزاء من السهل الأوروبي العظيم .  
ومن الناحية الأخرى فهذا سهل هنغارية الذى يكون وحدة جغرافية ، لم يؤد  
إلى خلق أمة هنغارية من الشعوب المتباينة الساكنة فيه .

حاول بعض أعداء القومية العربية أن يوجدوا روابط سياسية وثقافية  
مستندة إلى روابط جغرافية ، مثل الرابطة الشرقية ، ورابطة البحر الأبيض  
المتوسط . إن الجوار وحده لا يكفي لإيجاد رابطة . بل على العكس من ذلك ،  
قد يؤدى إلى منافسات ومخاصمات . كثيراً ما نشبت الحروب بين أمم متجاورة  
ما دام لا يرابطها رابطة قومية . ولذا فإن الرابطة الشرقية لا تستند إلى أى أساس  
صحيح . إذا كنا نشاهد فى بعض الظروف ، شيئاً من التعاطف والتآزر بين الدول  
والأمم التى تسمى عادة باسم ( الشرقية ) ، فإن السبب فى ذلك يعود إلى تشابه  
أحوالها نتيجة لسيطرة الدول المستعمرة عليها ، لا إلى كونها شرقية . ويسجل  
التاريخ عدداً غير قليل من المخاصمات بين الدول الشرقية نفسها ، كما أننا نجد  
فى كثير من المناسبات مساعدة ومؤازرة من دول غير شرقية ، أكثر من بعض  
الدول الشرقية .

نادى الفرنسيون بفسكرة ( رابطة البحر الأبيض المتوسط ) لإيهام  
اللبنانيين والسوريين بأنهم أقرب إلى فرنسا من العرب . حقا كانت سواحل  
البحر الأبيض فى عهد من عهود التاريخ المركز الوحيد للحضارة البشرية ،  
ولكن الأمور تغيرت بعد ذلك . فقد انتشرت الحضارة ، أولاً إلى شمال

أوروبا أيضاً ، ثم إلى ما وراء المحيطات . وأصبحت الحضارة غربية ، ثم صارت  
أوروبية ، ولم يعد للبحر الأبيض ميزة خاصة .

هل نعتبر وحدة الأصل والعنصر أساساً للقومية العربية ؟ .

يظن الناس عادة أن كل أمة من الأمم تنحدر من أصل واحد ، ويؤمنون  
أن جميع أفراد الأمة يكونون بمثابة الأشقاء المنحدرين من صلب أب واحد ،  
ولذلك نجدهم يكررون في كل مناسبة كثيراً من التعبيرات الدالة على هذا  
الزعم ، كقولهم : أجدادنا ، آباؤنا ، إخواننا . وتطور الأمر ، فقسم بعض  
العلماء البشر إلى عدة أجناس اعتبروا بعضها أجناساً ممتازة بالفطرة ، وبعضها  
منحطة بالخلقة ، واتخذ البعض هذه النظرية وسيلة لتبرير النظم الأرستقراطية  
قائلين : إن الطبقة الأرستقراطية تمتاز عن طبقة الشعب بدماغها الراقية  
النقية ، فيجب أن تمتاز عنها في الحقوق أيضاً . واعتبر البعض الآخر هذه  
النظرية دليلاً على وجوب سيادة بعض الأمم على غيرها قائلين : إن من حق  
الأمة الممتازة بالفطرة - بل من واجبها - أن تسود على الأمم الأخرى لخير  
الحضارة ، ولصالح الإنسانية .

من المعروف لدى علماء الأجناس البشرية أنه لا يوجد اليوم دولة من  
الدول ولا أمة من الأمم ينتمون إلى أصل أو عنصر واحد ، بل نتيجة امتزاج  
بين العناصر العديدة . فكل من الأمم الفرنسية والإيطالية والألمانية  
والانجليزية تتألف من جماعات تنسب إلى بضع سلالات بشرية . ولا تسود

سلالة من هذه السلالات في أمة مامن تلك الأمم بمقدار ما يسود الأصل العربي السامي في سكان الأقطار العربية .

إن اختلاف التاريخ العنصرى لشعب مالا يحرمه من كونه أمة ، مادامت هذه العناصر قد اختلطت وامتزجت ببعضها ولم تقف من بعضها البعض موقف عداء ، كما هي الحال في بعض الدول البلقانية التي لم تتحد شعوبها ، ومن ثم لم تنشأ فيها أمة موحدة ، رغم أنها تعيش في بلاد واحدة ؛ أى وحدة جغرافية وتحت سلطة حكومة واحدة . كما أن النظرية العنصرية التي تفضل جنسا على آخر والتي ترمى إلى السيطرة على كل من تعتبره تابعا للجنس الأصلى ، هذه النظرية لا تتفق أبدا مع القومية . فالقومية أساسها وحدة الشعور بين أفراد الأمة ، وتلك العنصرية تقوم على سيطرة جماعة واحدة على غيرها من الجماعات التي تعيش معها ، ومن ثم كانت القومية العنصرية خطرا على السلام العالمى ، بينما نجد أن القومية الصحيحة تهيب أتباعها للقيام بواجبهم كجماعة وكأمة في سبيل الحضارة العالمية

هل نعتبر وحدة المصالح الاقتصادية أساسا للقومية العربية ؟

لاشك أن المسائل الاقتصادية تلعب دورا كبيرا في سير التاريخ وتكوين الدول . ولكن البعض يغالى كثيرا في أهمية العامل الاقتصادى ويرجع كل كل شىء إلى الدوافع الاقتصادية ، وهؤلاء هم أصحاب ( مذهب المادية

التاريخية) الذين يذكرون تأثير العوامل الفكرية ، ويفسرون التاريخ تفسيراً اقتصادياً .

إن ارتباط الأفراد بالجماعات بوجه عام ، وبالقوميات بوجه خاص لا يمكن أن يعال بالمنافع الاقتصادية وحدها . إن حب الوطن - وحب الأمة - يدفع المرء إلى التضحية بالحياة عند الاقتضاء . ومن الطبيعي أن يدفع إلى تضحية المنافع والمصالح الاقتصادية أيضاً .

كثيراً ما يتحدث أعداء القومية العربية عن اختلاف المصالح الاقتصادية بين البلاد العربية ، ويزعمون أن هذا الاختلاف يقتضى بقاء تلك البلاد منفصلة ومستقلة ، لأن تضارب المصالح يحول دون الاتحاد . ولكن يجب علينا أن نلاحظ أولاً أن المصالح الاقتصادية ليست من الأمور الثابتة . لأن هناك مصالح قريية الأجل ، ومصالح بعيدة الأجل ، ومصالح عارضة ، ومصالح مستديرة ، مصالح خاصة ببعض الأفراد ، ومصالح شاملة للجماعات ، مصالح طائفة من الطوائف ، ومصالح الطوائف الأخرى ، مصالح مدنية من المدن ، ومصالح المدن الأخرى ، ومصالح القطر بأكمله . وهذه المصالح كثيراً ما تكون متضاربة ومتباينة بطبيعة الحال .

إنه لا توجد أمة لا تتضارب فيها مصالح مختلف الجماعات ، ولا توجد دولة لا تكون مسرحاً لتضارب المصالح وتوازنها في مختلف الميادين . إن اختلاف المصالح الاقتصادية في فرنسا تدحض نظرية المادية التاريخية . فسكان الجنوب

يفرسون الكرم ، بينما أهل الشمال يعملون في المناجم والمصانع . وسكان مدينة ليل في فرنسا أقرب إلى سكان حوض الرور الألماني في تفكيرهم الصناعي الاقتصادي . إن وحدة المصالح الاقتصادية لا تؤدي إلى وحدة الأمة ، بل إن وحدة الأمة تؤدي إلى وحدة المصالح الاقتصادية ، فحضور شعب لدولة واحدة يؤدي إلى توحيد نظمه وقوانينه وادارته ، فيتاح للأمة أن تصهر في بوتقة الحياة فتزداد ترابطا ومتانة .

هل نعتبر الدين أساسا للقومية العربية ؟

يرى البعض أن الدين من عوامل القومية ومن أسس قيام الأمم . وإننا لاننكر أثر الدين تماما ، فقد شهدت بعض أدوار التاريخ ما يثبت ذلك ، فقد كان الدين أحد العوامل التي أدت إلى انفصال البلجيكيين عن الهولنديين ، كما نعرف أثر الدين في حياة أسكتلندة وأيرلندة السياسية .

ولكن بجانب هذه الأمثلة القليلة توجد أمثلة أخرى عديدة تبين أن الدين لم يمنع قيام قوميات قوية . فألمانيا تغلب الكاثوليكية على جنوبها وتسود البروتستانتية في شمالها ، ولكن ذلك لم يمنعها من أن تكون أمة متحدة لغتها واحدة هي اللغة الألمانية . وهذه الجملة تتألف من أقلية كاثوليكية وغالبية عظمى بروتستانتية . وهناك كثير جدا من دول أوروبا يستمتع أفرادها بالحرية الدينية دون أن يضعف ذلك الاختلاف الفردي من القومية .

اعتبرت المسيحية أن جميع المسيحيين أبناء إله واحد بصرف النظر

عن القطر الذي يسكنه كل فرد . فكان المسيحيون يعتبرون أنفسهم تابعين لفكرة واحدة عامة وكنيسة جامعة ، لا فرق بين فرنسي أو إيطالي أو ألماني . وسادت تعاليم أساسها وحدة الشعوب والأفراد وانضواؤهم جميعا تحت قيادة الكنيسة . وهذا الاتجاه في تفكير أهل العصور الوسطى مثلا يحول دون نشوء روح قومية وطنية . وقد وافق انتشار المسيحية في أوروبا سيطرة اللغة اللاتينية ، فكان للناس جميعهم دين واحد ولغة واحدة ، وهذه اللغة الواحدة زادت في ارتباطهم بعضهم ببعض .

أما الإسلام ، فقد انتشر له سلطانان في وقت واحد ، الأول سياسي ، والآخر ديني . ولما كان الإسلام دين أخوة عالمية ، لا فرق بين مؤمن وآخر إلا بالتقوى ، فقد صار المسلمون أخوة تربطهم رابطة واحدة ، على تباعد أوطانهم وتباين طرق معيشتهم واختلاف لغاتهم ، ولكن عندما انحسر السلطان السياسي عن بعض الأقطار ، صار هناك أقطار إسلامية ذات حكومات وطنية ، وأقطار إسلامية أخرى ذات حكومات عربية .

بدأ عصر النهضة الأوروبية ، وبدأ ظهور القوميات ، وعرف الناس معنى القومية والوطنية والدولة والأمة ، وتغلقت اللغة على الدين ، فتحرر المسيحيون من سلطة الكنيسة ، وتخلصوا من اللغة اللاتينية التي تفرضها الكنيسة ، وقامت القوميات على أساس اللغات .

تقسم الأديان إلى نوعين : أديان قومية ، وأديان عالمية . أما الدين القومي

فهو ينعصر في قوم أو شعب أو مدينة ، فلا يسعى أعصابه إلى نشره بل يسون أبواب هذا الدين في وجوه سائر الأقسام ، وهنا ترتبط الحياة الدينية بالحياة السياسية ويسكون الدين من عوامل القومية . واليهودية والأديان الوثنية من الأديان القومية .

أما الأديان العالمية ، فلا تختص بشعب أو أمة ، بل تفتح أبوابها للجميع على اختلاف لغاتهم وأجناسهم ، فهي بذلك تعارض القوميات . والمسيحية والإسلام من الأديان العالمية .

هل نجحت المسيحية والإسلام ، وهما من الأديان العالمية ، في إيجاد رابطة أقوى من الروابط القومية ؟ للأسف الإجابة بالنفي . فإن الأديان العالمية لم تنجح إلا في نطاق محدود ، ولفترة قصيرة ، فلم تمزج الأقسام ولم تقض على الفوارق .

إن المسيحية حاولت أن تنتشر في جميع أنحاء الأرض ، وكانت تعتبر جميع المسيحيين أبناء إله واحد ، مهما اختلفت أجناسهم أو أوطانهم ، أو حياتهم الاجتماعية . وكان المسيحيون تابعين لمقيدة واحدة ولكنيسة جامعة . وحالت هذا لفكرة دون نشوء روح قومية وطنية طوال العصور الوسطى وساعد على بقاء هذه الفكرة سيطرة اللغة اللاتينية فكان المسيحيون خاضعين لدين واحد ولغة واحدة ، ومالبت أن انتصرت اللغة على الدين ، وتكونت القوميات على أساس اللغات .

في الأدوار الأولى من التاريخ كان الانتصار للدين على اللغة، بل إن الدين عمل على انتشار اللغة، فقد انتشرت اللاتينية بواسطة المسيحية أكثر مما انتشرت بواسطة الفتوحات الرومانية، واللغة العربية نشرها الإسلام أكثر مما نشرتها السياسة والإدارة. ولكن انقسام الأديان إلى مذاهب من جهة وظهور الروح القومية - بعد عصر النهضة خاصة - من جهة أخرى، أدى إلى انتصار اللغة على الدين.

إن الإصلاح الديني الذي نادى به مارتن لوثر لم يكن انقلاباً مذهبياً فحسب، بل أوجد انقلاباً سياسياً واجتماعياً خطيراً. فقد حرصت الكاثوليكية على بقاء الإنجيل والصلوات باللغة اللاتينية. لكن لوثر نادى بضرورة ترجمة الإنجيل إلى اللغات المحلية ليتفهمه الناس، فوضع بذلك حداً لسيطرة اللغة اللاتينية، وأصبحت الكنائس قومية. وحافظت الأمم التي تتكلم باللاتينية على كتاباتها وأعرضت عن المذهب البروتستانتي الجديد، بينما أقبلت الأمم الجرمانية والانجلو سكسونية على البروتستانتية.

إن الوحدة السياسية التي حاولت الكنيسة المسيحية تكوينها لم تستطع أن تجمع العالم الأرثوذكسي مع العالم الكاثوليكي، كما أن الوحدة السياسية التي سعت لتكوينها البابوية في العالم الكاثوليكي نفسه لم تعمّر طويلاً.

كذلك كان الأمر في العالم الإسلامي، فإن الوحدة الإسلامية التي وجدت

في صدر الإسلام لم تقو على تقلبات الأيام. فانخلفة العباسية لم تستطع أن تجمع كل المساهمين تحت رايتها السياسية وتحولت إلى وحدات سياسية عديدة مستقلة .

إذا أردنا أن نعرف مدى علاقة الإسلام بالقوميات فعلمنا أن تتبع مدى انتشار كل من الإسلام واللغة العربية :

١ — هناك أقطار فتحها العرب المسلمون فتغلبت فيها اللغة العربية على اللغات المحلية وأصبحت اللغة الأولى ، وأصبح الإسلام الدين السائر ، وهي الأقطار التي تكون العالم العربي الحالي .

ب — وفي بعض الأقطار انتشر الإسلام فيها دون اللغة العربية ، مثل إيران وتركيا .

ج — بعض الأقطار انحسر عنها الإسلام واللغة العربية مثل الأندلس وصقلية .

د — أقطار أخرى انتشر بها الإسلام نتيجة فتوح إسلامية غير عربية ، مثل فتوح الأتراك السلاجقة في الأناضول ، وفتوح الأتراك العثمانيين في البلقان ، وفتوح المغول في الهند .

هـ — أقطار انتشر بها الإسلام عن طريق غير الفتوح العسكرية ، بل نتيجة جهود تجار ووعاظ كما في أندونيسيا وماليزيا .

إن الوحدة السياسية بين المساهمين التي لم تتحقق في القرون الماضية في

في عهود بساطة الحياة الاجتماعية وسذاجة العلاقات السياسية، وفي أدوار سيطرة التقاليد الدينية على كل ناحية من نواحي الأعمال والأفكار، ليس من الممكن أن تتحقق في القرن العشرين الذي تفقدت فيه الحياة الاجتماعية وزادت المشاكل السياسية، وخرجت العلوم والصناعات من سيطرة التقاليد والمعتقدات. إننا نعيش في عصر انفصلت فيه العلاقات السياسية عن العلاقات الدينية. فقد شهد القرن العشرون كثيرا من الحروب التي نشبت بين دول تنتسب إلى دين واحد، وشهد محالفات تضم دولاً تختلف في الأديان إن المسيحية لم تمنع إيطاليا المسيحية من أن تعمل على إفناء شعب الحبشة المسيحي. إن اختلاف الأديان لم يمنع من قيام حلف بغداد الذي يضم دولاً إسلامية وأخرى مسيحية، بينما ظل ميثاق سعدأباد الذي عقد بين أربع دول إسلامية حبرا على ورق. ولم يمنع اختلاف الأديان من تسكوير كتلة ضخمة تضم الشعوب الآسيوية والإفريقية، دوى صوتها في مؤتمر بانندونج وهيئة الأمم المتحدة.

وأخيرا... أي الأسس تصلح لتقوم عليها القومية العربية؟

إذا أردنا أن نقيم قومية عربية سليمة، فلننضمها على أسامين قويين، وهما وحدة اللغة وما يتبعها من وحدة الثقافة والعقلية والنفسية، ووحدة التاريخ:

١ - وحدة اللغة:

ما هي اللغة؟ أي كلمات ينطق الإنسان بها للتعبير عن حاجاته، أم هي وسيلة لبيان المعاني، أم هي خزانة لتراث الشعب وثقافته، أم ديوان لأشعاره

وآدابه ، أم مرآة لأمانيه وآماله ، أم سجل لا يمحي لحضارته؟ أم مفتاح لأفكاره وأعماله قبل التاريخ؟ هي هذه كلها أو أكثر . هي جزء من كيان الشعب الروحي ، هي رمز وحدته الروحية وركنها الأعظم .

نعم إن اللغة هي أساس القومية ومجورها ، فاللغة سبيل لنقل آثار التاريخ إلى الأقبام ، فتصبح هذه الآثار جزءا من حياة القوم الفكرية والروحية وعاداتهم الوطنية والخلقية . واللغة ليست ألفاظا فحسب ، بل هي آداب وتقاليد وعادات وطرق تفكير ووسائل تعبير ، ولون من ألوان الشعور .

إن القومية في جوهرها وأصلها شعور ، والأمة هي نتيجة هذا الشعور . هي نتيجة شعور الأفراد واعتقادهم بوجودها . وهذا يتحقق نتيجة الاشتراك في اللغة ، والتاريخ ، والأفكار . ولا يهمن أن يشتركوا في الدين أو العنصر . إن العالمين الكبيرين ( منشيني ) و ( إيوانوف ) يشتركان في اعتبار اللغة عنصرا أساسيا في تكوين الأمة . ويقول ( بلنشلي ) : متى استبدل المرء لغته بلغة جديدة خسر قوميته . وفي الحقيقة أن اللغة هي من نتائج الحياة الاجتماعية ومن عواملها في وقت واحد ، ولو لم تكن اللغة لما تميزت الجماعات البشرية عن قطعان الماشية . كما أن اللغة لم تكن وسيلة التخاطب فحسب ، بل هي وسيلة التفكير أيضا ، ولو لم تكن اللغة لما تقدم العقل البشري الذي يمتاز به الإنسان عن سائر الحيوانات .

لقد أثبتت الأبحاث العلمية والأحداث السياسية أن أهم عناصر القومية

هي : اللغة والتاريخ . واللغة بمثابة حياة الأمة ، والتاريخ بمثابة شعورها . وهناك أمثلة كثيرة تبرز أهمية اللغة في نشوء القوميات المعروف أن إنجلترا خرجت من القرن الحادي عشر للميلاد وهي وحدة سياسية . وكان في إنجلترا ثلاث لغات : اللاتينية التي كانت قد خسرت المعركة ، والفرنسية التي كانت لغة النورمان الفاتحين ، واللغة الإنجليزية التي كانت سبيل الاتصال بالشعب . وقد كانت الفرنسية لغة البلاط والبرلمان في أول الأمر . لكنه في سنة ١٣٦٢ استعمل البرلمان اللغة الإنجليزية فكان هذا انقصاراً للغة الوطنية . وكان آخر خطوة لانتصار اللغة الإنجليزية هو جعل الكنيسة وطنية .

لعبت اللغة الألمانية الدور الأول في ظهور ألمانيا كدولة متحدة مستقلة ، بل إن النزعة القومية الألمانية امتزجت تماما بالحركات الثقافية الألمانية . فقد انصرف الكتاب إلى دراسة اللغة والعناصر البشرية والتاريخ بقصد الوصول إلى أصل الألمان وتطورهم في المصور التاريخية حتى ظهور هذه الجماعات التي تعيش في ألمانيا الكبرى . كما لعبت اللغة الإيطالية دوراً رئيسياً في ظهور الدولة الإيطالية فقد كانت تجمع الإيطاليين لغة واحدة هي لغة لاتينية تطورت مع القرون حتى آلت إلى اللغة الإيطالية التي كان يفهمها جميع سكان البلاد .

إن القومية التركية الحديثة تركز على اللغة والأدب والتاريخ . فقد قام ثلاث من الكتاب الأتراك ، ( شياخي أفندي ، نامق كمال ، ضيا باشا ) بإحياء اللغة التركية الحديثة ، وحملوا بعض الألفاظ معاني جديدة ، فبعد أن

كانت كلمة (وطن) يفهم منها البيت أو مكان الميلاد وصارت تدل على (البلاد) ، وبعد أن كانت كلمة (ملت) تعنى جماعة دينية صارت تشير إلى (الشعب) وكننا نعرف الدور الذى قام به مصطفى كمال أتاتورك وكيف كان يرى أن الدين الإسلامى لا يصلح لأن يكون أساسا للقومية التركية الحديثة .

يرتبط بوحدة اللغة وحدة العقلية والنفسيّة . ونعنى بتشابه العرب فى عقليتهم أو مزاجهم أو تكوينهم النفسى تشابه نظرة العرب إلى شئون الحياة المختلفة ، وكيفية استجابتهم للمؤثرات الخارجية . فالعرب يكادون يتشابهون فى نظرتهم إلى العمل الإنسانى ، وإلى المرأة ، وإلى الشرف والعرض ، والوفاء والكرم والضيافة وحماية الجار ، وما إلى ذلك من العادات والقيم الاجتماعية التى هى المظهر الخارجى أو العملى لنفسيّتهم .

تشابهت نفسية العرب نتيجة لعوامل عديدة ، معقدة ، تفاعلت دهورا . أهمها تشابه الأسس الاقتصادية ، والاجتماعية ، والروحية التى يقوم عليها المجتمع العربى . فقد كان هذا المجتمع منذ أقدم العصور مجتمعا زراعيا ، إقطاعيا ، قبليا ، دينيا . وسيطرت الروح الدينية على العرب فترة طويلة ، فقد كانت الأراضى التى يعيش فيها العرب الآن مهد الأديان الثلاثة . كما أثرت اللغة العربية — بما حوته من شعر وقصص وأساطير وأمثال وحكم وأغان — فى تفكير العرب وأذواقهم ومثلهم العليا .

## ب - وحدة التاريخ :

إن أهم عناصر القومية ، بعد اللغة ، هو التاريخ . فالتاريخ بمثابة شعور الأمة وذاكرتها ؟ فإن كل أمة من الأمم إنما تشعر بذاتها ، وتسكون شخصيتها بواسطة تاريخها الخاص . إن وحدة التاريخ تولد تقساربا في العواطف والنزعات ، وتمائلا في التقاليد والعادات ، وفي ذكريات المفاخر السالفة وفي ذكريات المضائب الماضية ، وإلى تشابه في آماني النهوض وآمال المستقبل . إن الذكريات التاريخية تقرب النفوس وتكون بينها نوعا من القرابة المعنوية . والامة المحكومة التي تنسى تاريخها الخاص تكون قد فقدت شعورها القومي وهذا الشعور لا يعود إليها إلا عندما تتذكر ذلك التاريخ وتعود إليه . ولذا فإن الدول المستعمرة تحارب تاريخ الأمة المحكومة ، كما أن اليقظات القومية تبدأ بإحياء التاريخ القومي ، وتذكير الشعب بالسيادة الماضية والمجد السالف ، وبتثبيت الإيمان بمستقبل الأمة يستمد قوة من معرفة ماضيها الباهر . هذه كلها حقائق ثابتة ، تشهد بها جميع التواريخ من تاريخ استقلال اليونان إلى تاريخ اتحاد الألمان ، ومن تاريخ ثورة البلغار إلى تاريخ وثبة الأتراك .

إن التاريخ بكل ما فيه من حوادث وأبطال وانتصارات وهزائم وذكريات يحيي نفوس أفراد الأمة ويبعث فيهم الروح القوي الوثاب ويدفعهم إلى الأمام . وليس التاريخ عند العرب ماضيا ، بعيدا ، ميتا ، يستعيدونه عندما

يشاؤون ، وينسونه عندما يريدون ، بل هو حىّ بينهم ، قريب منهم ، بل نقول إن العرب يعيشون في تاريخهم .

وعلى الرغم من أن العرب في العصر الحاضر قد تكونوا نتيجة امتزاج أقوام عديدة بالعنصر العربى ؟ فإن الذكريات التاريخية التى تسيطر على عقليتهم هى ذكريات التاريخ العربى الذى يبتدىء عندهم بالرسالة المحمدية ، بينما لا يذكرون شيئاً من أمر المدنيات القديمة التى ازدهرت فى العالم العربى قبل ظهور الإسلام . إن إحساس العرب بتاريخهم على هذا الشكل هو نتيجة لشعورهم بكونهم عرباً . وشعور العرب هذا ، على اختلاف الأصول الجنسية التى انحدروا منها ، يعدل شعورهم بأنهم ينحدرون من أصل واحد ، ويجرى فى عروقهم دم واحد ، ويقوم مقامه .

التاريخ العربى حى فى أذهان الجماهير العربية لأنه والإسلام عندها شىء واحد . والإسلام فى العالم العربى حى يطالع المرء أينما ألقى نظره . يطالعه فى هذه المساجد القديمة ، وأصوات المؤذنين ، والآثار العربية الإسلامية ، وسيرة الرسول ، والخلفاء الراشدين ، والأبطال القدماء .

إن وحدة التاريخ بمعناها المطلق التام ، مما لا يتحقق أبداً فى حياة أمة من الأمم ، ولا دولة من الدول فى كل دولة توجد بعض الأقطار التى لم يتحد تاريخها مع تاريخ بقية أقطارها إلا منذ مدة قصيرة نسبياً ، وتوجد بعض الأقطار التى يختلف تاريخها عن تاريخ الأقطار الباقية قليلاً أو كثيراً . وذلك ليس فى الدول والأمم التى اتحدت حديثاً فقط ، بل فى الدول والأمم التى أتمت

وحدتها منذ عدة قرون أيضاً . إذا أنعمنا النظر في تاريخ فرنسا مثلاً - وهي التي سبقت سائر البلاد الأوروبية في تكوين وحدة قومية - وجدنا فيها عدة مقاطعات لم تلتحق بها إلا منذ قرن ونصف قرن ، بل إن مقاطعة حاربت باقي المقاطعات فترة طويلة .

ولذا عند ما نقول (وحدة التاريخ) يجب أن نفهم من ذلك الوحدة النسبية والغالبة التي تتجلى في أهم صفحات التاريخ التي أوجدت ثقافة الأمة السياسية ، وأعطتها لغتها الحالية وطبعتها بطابعها الأصلي الخاص وإلا لما استطعنا أن نجد أمة واحدة كانت موحدة على طول تاريخها توحيداً تاماً .

وإلى جانب هذا التاريخ العام الموحد يقوم تاريخ إقليمي ، ضيق الآفاق ، يعمل دعاة الإقليمية على ترويقه وغرسه في قلوب الناس ، والناشئين منهم ، بواسطة المدارس والمؤلفات والجرائد وغير ذلك من وسائل الدعاية والنشر . وقد أخذت هذه الظاهرة تقوى بعد أن تحقق تقسيم البلاد العربية إلى دول متعددة ، وظهرت فيها أسرها حاكمية . وهذا التاريخ الذي يقوم على ذكر حوادث القطر الواحد منفصلة عن حوادث الأقطار العربية الأخرى ، والإشادة بأعجاز الأسر الحاكمة ، وأظهار ما يشجر بين هذه الأسر الحاكمة من خلافات ، كأنها خلافات قائمة بين الشعوب العربية نفسها ، يدعم الإقليمية ، ويزيد من عوامل التباعد بين البلاد العربية .

وفي ختام هذا الفصل نقول : إن اللغة والتاريخ هما العاملان الأصليان اللذان يؤثران أشد التأثير في تكوين القوميات . فاللغة بمثابة روح الأمة وحياتها ، والتاريخ بمثابة شعور الأمة ووعيتها .